زوج من البط

قصة د. سيد شعبان

نامت وهي لا تدري أن قطار الفجر قد فاتها، دارت بها الأرض فلم تعد تعي أن رحلتها التي ظلت أسابيع تعد لها قد أجلت ليوم آخر وربما لن تتم في القريب العاجل، تروح وتلف وتدور تستحضر الأدعية التي ستتمتم بها، إنه الأمل تترقبه وتظن أن السيدة ستبارك لها، تتخيلها وقد مدت إليها يدها مصافحة، إنها أحاديث الجدة عن السيدة الباتعة صاحبة السر والدعاء المستجاب؛ أليست بنت النبي؟

لقد تمنت أن تزور السيدة أم هاشم، نذرت لها ذكر بط سوداني وبطة سمينة وزوجين من الحمام، تعلم أن أم هاشم سيدة أهل البيت يلتف حول مقامها كثير من الغلابة والمنكسرين، الوفاء بالنذر دين في رقبتها تحاول أن تفي به؛ وإلا طار العريس من العش الذي ظلت عشر سنوات تغزل من أعواد الأحلام ثوبها بدموع السهر ولهفة الحنين إليه.

حين أفاقت هبت مذعورة، فركت عينيها بكفيها ممعنة في الصحو، إنه هناك في» شباس الشهداء» بينها وبينه ساعة على الأقل لو جرت خلفه، انتابها بكاء ونشيج، ألقت بجسدها على الحصير، ستغضب منها السيدة، أو لعلها لا تريد منها النذر، أخذت تلوم نفسها، إنها من فعل بنفسه كل هذا، لقد اختلست من جارتها منديلها، حيث ظنت أنها تريده لنفسها، ذهبت إلى الشيخة مقبولة، عملت لها « عملا» ألا ينظر إليها شحاته الراعي، كان مفتول العضلات يجري وراء الأغنام كانه الحصان الرهوان، كل البنات عند نوبة ملء المواعين من حنفية الشيخ ربيع كن ينتظرنه، وحدها أدمنت وجهه؛ تنظر إليه!

إنه الحسد قد خيب رجاءها، هنومة صاحبتها كشفت سرها، أذاعت في الحارة أن فاطمة بنت مسعودة وهذا اسمها ستركب قطار الفجر وتسافر إلى السيدة زينب، خيال، هي لا تعرف أين توجد القاهرة، سيما وفاطمة هذه لم تغادر الكفر أبدا، كانت تسمع عن صاحبة السر التي تجبر خاطر المحبين، في الليلة التي سبقت سفرها- الذي كان حلما- زارتها هنومة، أخذت تعد معها الزيارة، في خفاء من جدتها وأمها؛ قد اختلست زوجي البط وأحضرتا من بنية الحمام ذلك الزوجين، كانا جميلين، حين انتهيا غادرت هنومة، لكنها طافت بكل عتبات الحارة، أذاعت السر، ومن ثم أحكمت الأم والجدة غلق الباب، ظلت ساهرة حتى منتصف الليل، خيالها الصغير لم يفطن إلى بعد المسافة، كيف لها أن تتسلل من وسط الدار ولا يصوت البط، بل وهل معقول ألا يطير الحمام؟

وكيف لها أن تتحرك وحدها في عتمة الفجر والعفريتة تسكن سكة المقطع عند الترعة الكبيرة فوق الجميزة قبالة كوبري الشيخ سلامة؟!

إنها لا تعرف الطريق، ومن الممكن أن يطلع عليها الذئب الأعور الذي افترس بقرة الهنادوة في الشتاء الماضي، لقد تناست كل هذا، فقط تود أن تفي بالنذر، حتى يأتي شحاته الراعي، وهي لا تعلم أنه لص كبير يسرق أغمار البرسيم ويفطر بها غنمه، يسرح بالليل مع الحرامية حتى بات شيخ المنسر، أفاقت وقد صاح أبو طيفه المسعودي أن ابن ستوته وهذه هي أمه أمسك به الهجانة وكان يسرق بقرتهم الحمراء، في سرعة فكت حبل زوجي البط، أطارت الحمام، أدركت أن السيدة زينب بالفعل سرها باتع!